مجلة الساورة للدراسات الإنسانية والاجتماعية
ISSN: 2477-9881 EISSN: 2676-2153
المجلد: 08 / العـدد: 01 (2022)، ص 85- 99

تطور حركة التصوف الإسلامي من الزهد إلى العرفان
(من القرن الأول إلى السادس الهجريين)

The development of Islamic Sufism from asceticism to gnosticism.
(from the first to the sixth century AH)

د. بن لحسن عبد الرحمان[1*] ، أ د. فقيقي محمد الكبير[2]
[1] كلية الآداب واللغات، جامعة طاهري محمد بشار(الجزائر)،benlahcene.abderrahmae@univ-bechar.dz
[2]كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة طاهري محمد بشار (الجزائر)،mohamedelkebir.figuigui@univ-bechar.dz

تاريخ الاستلام: 2021/12/16 تاريخ النشر: 2022/06/11

الملخص:

لقد تفاعلت العديد من العوامل والمؤثرات لتأسيس حركة التصوف الإسلامي، وذلك منذ أن ظهرت في شكل حركة زهدية أو ثورة روحية ضد طغيان الماديات وملذات الدنيا على حياة المسلمين، وانحرافهم عن الصفاء الروحي الذي عرفته القرون الثلاثة الأولى من تاريخهم، ثم تطورت تلك الحركة الزهدية إلى أن تمّ التأصيل للتصوف كعلم قائم بذاته، معترف به ضمن الدائرة السنية، فتمايزت الطائفة الصوفية عن غيرها كتيار عرفاني يسعى للحفاظ على جوهر الدين وروحه وحقيقته بالأساس، فضلا عن رسومه وظواهره وشريعته.

الكلمـات المفتـاحية: التصوف، المتصوفة، الزهد، الزهاد، العرفان، الروح، الظاهر، الباطن، الفقهاء، المتكلمون.

Summary

Many factors and influences interacted in the production of the Islamic mysticism movement, as it appeared in the form of an ascetic movement or a spiritual revolution against the tyranny of materialism and worldly pleasures in the lives of Muslims, and their deviation from the spiritual purity of Islam. The first three centuries of their history. And it developed into the rooting of Sufism as a recognized science in the Sunni circle, so the Sufi sect was distinguished from others as a gnostic current that seeks to preserve the essence, spirit and truth of religion in the foundation, as well as its drawings. phenomena and the law.

Key words: Sufism, Sufis, asceticism, gnosticism, spirit, form, esotericism, jurists, theologians.

* المؤلف المرسل

مقدمة.

لقد تعددت وتنوعت الدراسات التي عالجت ظاهرة التصوف في الإسلام، وتراوحت بين فريق مدافع عن التصوف يسعى للرد على المخالفين ودحض آرائهم بعاطفة جارفة ونزعة متعصبة، وبين فريق يمقت التصوف ويسعى لاستئصاله بزعم أنه ابتداع وخروج عن الدين، وفي خضم ذلك الجدل المشحون بالذاتية والتعصب الإيديولوجي ضاعت حقيقة التصوف كثورة روحية عرفانية تسعى للحفاظ على جوهر الدين اعتراها ما يعتري أي حركة بشرية من انحراف عن المقصد، وفي كل الأحوال فهي حركة دينية وفكرية واجتماعية راسخة في كيان الحضارة الإسلامية.

ولذلك ارتأينا في هذه الدراسة التاريخية أن نسعى للوقوف عند جذور وأصول التصوف الإسلامي، بالبحث في أسباب ودوافع نشأته، ثم في مراحل تطوره والمظاهر التي تجلى فيها من القرن الأول الهجري إلى القرن السادس الهجري. وذلك بانتقاله من حركة زهدية فردية ليستقر إلى تيار عرفاني مؤصّل، له مكانته بين العلوم الدينية الإسلامية. وذلك خلال العصر الذهبي للحضارة الإسلامية وكذا لحركة التصوف الاسلامي، بغرض معرفة حقيقته لدى الطبقة الأولى المؤسسة قبل أن تعتريه حالة الانحراف لاحقا.

وعليه فإن إشكالية الدراسة تتمحور حول معالجة وتحليل ظاهرة انتقال التصوف الإسلامي من حالة الزهد الفردي إلى ممارسة جماعية تقوم على علم له أصوله وقواعده، ذلك العلم الذي اشتهر بالعرفان، بحيث تجلى في بعدين: نظري وعملي، فمن الناحية النظرية يعد العرفان فرع من فروع المعرفة الإنسانية التي تحاول أن تعطي تفسيرا كاملا عن الوجود ونظامه، أما العرفان العملي فهو تهذيب النفس وتربيتها ليؤدي صفاؤها إلى حالة من الانكشاف وتجلي الحقائق الكونية عبر الذوق القلبي، وبذلك تجاوز العرفان النظر العقلي القاصر في الوصول إلى المعرفة اليقينية.

أولا - ظروف وأسباب ظهور التيار الصوفي:

أ – الأسباب الدينية:

لقد عرف تاريخ المسلمين منذ القرن الأول الهجري ظهور تيار زهدي ينزع إلى الانقطاع للعبادة والعزوف عن ملذات الحياة استمد مرجعيته الأولى من القرآن الكريم والسنة النبوية، وتشير جملة من الدراسات الجادة إلى أن التصوف الإسلامي صدر في أصله وتطوره عن مداومة تلاوة القرآن وتدبره والتخلق بأخلاقه، ومنه استمد خصائصه المميزة ومن ثم كان للمتصوفة مستنبطاتهم من القرآن كما كان للفقهاء مستنبطاتهم منه، وهو الرأي الذي أيّده فريق من المستشرقين ممن تخصصوا في دراسة التصوف الإسلامي، وفي مقدمتهم: لويس ماسينيون. (Massignon , 1954 : 104)، والمتأمل في مصادر التصوف الأساسية يدرك ذلك للوهلة الأولى.

ومما يعزّز ذلك أيضا أن المتصوفة هم أكثر الطوائف الإسلامية اشتغالا بدراسة القرآن ومحاولة تفسيره حسب مقتضيات كل عصر، عكس المدرسة السلفية التقليدية التي تكتفي بما أُثر عن السلف في شأن التفسير دون أن تجتهد في ذلك.

واهتم المتصوفة أيضا بالسنّة النبوية واستنبطوا منها ما يؤصّل لمذهبهم، فاشتغلوا بفن الحديث حفظا ودراية وجرحا وتعديلا، ونبغ منهم في ذلك أساطين أمثال: الشيخ الحافظ جلال الدين السيوطي (849- 911ه). وأكثر ما شغلهم في ذلك التأسّي بأخلاق النبي محمد صلى الله عليه وسلم، والاستنان بسنته والتبرّك بآثاره، فالرسول صلى الله عليه وسلم هو مثلهم الأعلى، ويجعلون من ذلك التأسّي شرطا من شروط الانتماء إلى طريقهم. (محمد بن الطيب، 2007: 15)

ومن أجل ذلك سعى المتصوفة إلى تأصيل مذهبهم بالاستناد إلى القرآن والسنة، فالتصوف أو التزكية أو كما عبّر عنه الحديث الشريف ب: «الإحسان » يعتبر الركن الثالث من أركان الدين إلى جانب الإيمان والإسلام، والإحسان كما جاء شرحه في الحديث هو : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.» (ينظر التعليق رقم 1.)

فإذا كان الفقهاء قد أسّسوا علم الفقه لدراسة أركان الإسلام وعلم التوحيد أو العقائد لدراسة أركان الإيمان فإنه يصبح من الضروري تأسيس علم خاص بالإحسان، عُرف لدى المتصوفة بفقه الباطن متمايزا عن علوم الظاهر، فعلماء الظاهر يهتمون في شأن الصلاة مثلا بالأفعال والأقوال والهيئات من ركوع وسجود وقيام وقعود، بينما علماء الباطن يهتمون أكثر بالمعاني الروحية في الصلاة من خشوع وإخلاص وصبر ونحو ذلك.

هذه العوامل الدينية مهدت لظهور إسلام صوفي ذو فقه باطن مناظر لفقه ظاهر ومناهضا له أحيانا. وذلك سعيا نحو تحقيق درجة الإحسان وبالتالي كمال الإيمان.

ب – الأسباب السياسية والاجتماعية والثقافية:

لعلّ العوامل التي أدّت إلى ظهور الفرق الدينية منذ القرن الأول الهجري هي نفسها العوامل تقريبا التي أدّت إلى ظهور الحركة الصوفية، فما شهده الإسلام المبكّر من فوضى سياسية، وحروب وفتن داخلية، ومظالم اجتماعية وتفاوت فاحش بين الطبقات، وانحراف سلوكي لا سيما لدى الفئة الحاكمة، كل ذلك تسبب بطريق مباشر أو غير مباشر في نشأة الفرق الدينية، وفي تنمية روح الورع والزهد عند بعض الصحابة والتابعين.

ويأتي العامل السياسي (نيكولسون، 1956: 46) في مقدمتها فلقد كان نزوع البعض إلى حياة الزهد والورع تعبير سلبي عن رفض ممارسات السلطة السياسية والثورة عليها. ويمكن القول أن الحركة الزهدية التي كانت مقدمة ضرورية لبروز التصوف هي بمثابة صيحة نقد للفئة الحاكمة التي تنامى فسادها وإفسادها، هذه الحركة وإن كانت ترتد إلى الذات تبتغي إصلاحها وتقويمها فإنها من جهة أخرى تروم بطريق غير مباشر إصلاح الواقع المتردي والعودة بالمجتمع إلى قيمه النبيلة ومثله العليا. (ابن الطيب، 2007: 18)

كانت الحركة الزهدية ردّ فعل ضد اتجاه الفقهاء الذين التزموا حرفية النصوص واهتموا فقط بأحكام العبادات والمعاملات الظاهرة، كما كانت مناهضة لاتجاه المتكلمين الذين جردوا العقيدة الدينية من جانبها الوجداني بتطبيق مناهج عقلية صارمة. حتى

أصبح يعرف هؤلاء المتكلمين والفقهاء لدى المتصوفة بلقب:« علماء الرسوم.» (عرفان عبد الحميد فتاح، 1993: 54 – 55)

ثانيا – مراحل تطور الحركة الصوفية.

أ – المرحلة الزهدية وأطوارها.

ظهرت حركة التصوف في البداية على شكل مظهر زهدي خلال القرنين الأول والثاني للهجرة ثم بدأت تأخذ صبغة صوفية منذ نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث الهجريين. وخلال هذه المرحلة الزهدية يمكن التمييز بين ثلاثة أطوار:

الطور الأول:

تميز بظهور تيار زهدي منذ العهد النبوي، وتطور أيام حكم الخلفاء الراشدين، مثّله مجموعة من الصحابة أمثال أبي ذر الغفاري وسلمان الفارسي، حيث ظل أبو ذر ناقما على السلطة القائمة خاصة، وعلى التفاوت في الثروة بين الأغنياء والفقراء. فلم يشكل هذا التيار حركة من الحركات الدينية أو مذهب من المذاهب ولا نظاما اجتماعيا بل كان نزعة فردية قوامها الدين وحده: القرآن والسنة. (ابو العلا عفيفي، د-ت: 80-81)

الطور الثاني:

تطور التيار الزهدي إلى حركة زهدية منظمة منذ منتصف القرن الأول الهجري، ظهرت الدعوة إليها في البصرة والكوفة ومصر والشام ونيسابور، مثّله فريق من خواص المسلمين عرفوا بأسماء مستحدثة وهي: الزهاد والعباد والنساك والبكاؤن. ومن أشهر روادها: الحسن البصري (ت 111هـ / 720م). (ابو العلا عفيفي، د ت: 84) الذي حفظت أقواله ووصاياه في كتب المتصوفة اللاحقين.

الطور الثالث:

بدأ الغلوّ والتشدّد يظهر في سلوك بعض الزهاد، وانتهى الأمر ببعضهم إلى تضييق دائرة الحلال كالامتناع عن الزواج والعزوف عن التمتّع بزينة الحياة الدنيا، فتحول الزهد

إلى ظاهرة اجتماعية منظمة في صوامع ورباطات شبيهة بصوامع الرهبان المسيحيين وأديرتهم. (ابن الطيب، 2007: 22)

وهنا يظهر أثر الرهبنة المسيحية في الحركة الزهدية الإسلامية. (أبو العلا عفيفي، د ت: 70 – 71) ومن أشهر رواد هذا الطور: إبراهيم بن أدهم البلخي (ت 161هـ/ 788م) .

هكذا كان المظهر الزهدي للإسلام الصوفي ثورة روحية ضد نظام اجتماعي وسياسي قائم مثلما كان ثورة ضد مطامع النفس وأهواءها ومغريات الحياة وزينتها. (ابن الطيب، 2007: 24)

يعتبر ظهور رابعة العدوية (ت 185هـ/ 801م) ومن سار على دربها من النساء أو الرجال في تجسيد فكرة الحب الإلهي لحظة فارقة بين مرحلة الإسلام الزهدي ومرحلة الإسلام الصوفي، بالانتقال من مبدأ الخوف من الله إلى مبدأ الحب المتبادل بين الله وعبده، وكان ذلك ثمرة ممارسة زهدية طويلة حيث تحرر الزهاد من الهوى وحب الدنيا وانتهى بهم الأمر إلى حب الله تعالى. (ابن الطيب، 2007: 35 – 36)

ب - مرحلة نشأة علم التصوف:

لقد مهدت فكرة الحب الإلهي إلى ظهور الطبقة المؤسسة للتصوف مع نهاية القرن الثاني الهجري. كما شهدت هذه الفترة أول ظهور لمصطلح التصوف أو الصوفية، (ينظر التعليق رقم 2) فظهر الشيخ أبو يزيد البسطامي (ت 201هـ/ 874م) وعقيدته في الفناء، وأبو القاسم الجنيد (ت 293هـ/ 910م) وعقيدته في التوحيد، وذي النون المصري (ت 245هـ/ 859م) ونظريته في المعرفة، والحلاج (ت 309هـ/ 922م) وتجربته في الحلول، وغيرهم من أقطاب التصوف. (ابن الطيب، 2007: 36)

وهكذا بدأ يتجلى اختلاف واضح بين منهج المتصوفة ومنهج الفقهاء والمتكلمين في التعامل مع النص الديني وكيفية استنباط الأحكام. وتحول الخلاف إلى خصومة وعداء تسببت في نكبات ومحن لحقت بالمتصوفة وأتباعهم.

ج – مرحلة المحنة والثورة على منهج الفقهاء والمتكلمين

لقد ظهر الخلاف بين المتصوفة ومخالفيهم بشكل صارخ حوالي منتصف القرن الثالث الهجري، وبالتحديد ظهر الخلاف بين فقهاء ومتصوفة البصرة والكوفة، ثم تلته سلسلة من المضايقات والاضطهادات في مصر والشام والعراق، انتهت بمأساة الحلاج (خوالدية، 2014: 62 – 74) في بداية القرن الرابع الهجري.

وكان من أبرز الفقهاء الذين جابهوا التصوف الإمام أحمد ين حنبل (ت 241هـ/ 855م)، ومن بعده كان أتباعه أشد تنكيلا بالمتصوفة، وقد بلغ اضطهادهم أقصاه في عصر الخليفة العباسي المتوكّل، في المحنة التي اتّهم فيها نحو سبعين صوفيا، من بينهم الجنيد شيخ الطائفة ببغداد، وحوكموا وحكم عليهم بالإعدام ثم أفرج عنهم. (أبو العلا عفيفي، د ت: 104 – 105)

ولم تكن الثورة التي قام بها الفقهاء ضد المتصوفة في الحقيقة إلا ردّ فعل على الثورة الروحية التي صدع بها هؤلاء المتصوفة إزاء الدين، فالدين في عرف الفقهاء ليس إلا رسوم وأوضاع لا حياة فيها ولا روحانية، ثم تحول الخلاف إلى تعارض في مناهج البحث والمعرفة، فالفقهاء والمتكلمين أخذوا بالاستدلال العقلي وكذا القياس العقلي، بينما أكد المتصوفة على ضرورة المعرفة اليقينية بطريق الكشف والذوق والإلهام، فالعلم الحق هو العلم اللدّني الذي يلقيه الله في قلب المؤمن الذي بلغ درجة المكاشفة. (عرفان عبد الحميد فتاح، 1993: 159)

ومما زاد في حدّة الخلاف هو أن حركة التصوف الإسلامي بدأت تستوعب أفكارا فلسفية ودينية جديدة، استمدتها من عناصر أجنبية مختلفة: يهودية ونصرانية، مجوسية وبوذية، يونانية وغنوصية، (أبو العلا عفيفي، د ت: 75 – 80) وسعت لصياغتها ضمن هيكل الفكر الإسلامي، فأصبح التصوف يناقش إلى جانب العبادة والزهد قضايا ذات طابع فلسفي مثل طبيعة الوجود وأسباب المعرفة وطرائق تحصيلها. (ابن الطيب، 2007: 41 – 42)

وشهدت هذه المرحلة أيضا بداية تشكل المدارس الصوفية الكبرى كالمدرسة البغدادية والمدرسة الخراسانية وكذا المدرسة المصرية الشامية. ومع أنه لم يكن للمتصوفة حتى نهاية القرن الثاني الهجري حياة منظمة داخل الزوايا والرباطات فإنه سرعان ما ظهرت في جماعاتهم روح النظام، وتجمعوا حول المشائخ في حلقات الدرس والوعظ، وكان ذلك في المساجد أولا ثم في حلقات الذكر داخل الخانقاوات. (ابن الطيب، 2007: 43- 45)

وبتعدد مشائخ التصوف تعددت طرقهم في تربية المريدين، فالطريقة الصوفية ما هي في حقيقتها سوى المعراج الروحي عند المتصوفة، حيث قسموه إلى مراحل ومنازل، سموها مقامات، فيرى السالك في هذا الطريق أشياء لا يراها غير الصوفي، وتعترض سبيله عقبات لا تعترض سبيل غيره، كما تعتريه أحوال لا يعانيها سواه، ولا سيما في حالة الوجد، فلا يجد لغة يعبر بها عن هذه الأحوال سوى لغة الرمز والإشارة، وهي لغة استبشعها منتقدو طريق التصوف وعرفت لديهم بشطحات الصوفية. (ينظر التعليق رقم3)

د – مرحلة التأصيل للتصوف السني.

يشكل القرنان الثالث والرابع الهجريين (9 / 10م) العصر الذهبي للتصوف الإسلامي بظهور أولى المؤلفات المنظمة في التصوف ككتاب « اللّمع » لأبي نصر السراج الطوسي(ت 378هـ/ 998م) وكتاب «رعاية حقوق العباد» للحارث المحاسبي وكتاب « قوت القلوب» لأبي طالب المكي (ت 388هـ)، هذه المصنفات حفظت لنا تراثا نفيسا مستمد من مصادر مفقودة الآن.

واستمرت حركة التأليف والتأصيل لمذهب المتصوفة خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين (10/ 11م) فظهرت مؤلفات أسبغت على التصوف مشروعية سنية ككتاب «التعرف لمذهب أهل التصوف» للكلابادي (ت 388هـ/ 990م) و«الرسالة القشيرية» لأبي القاسم القشيري (ت 465هـ/ 1073م)، وبظهور الإمام أبي حامد الغزالي (ت 505هـ/ 1111م) وكتاباته خصوصا كتابه «إحياء علوم الدين» تمكن من إدخال التصوف في

نطاق الإسلام السني نهائيا، وكذا في التعليم الرسمي. (ابن الطيب، 2007: 47) وأصبح التصوف علم كغيره من العلوم الدينية الأخرى له قواعده وأصوله ومنهجه.

ومنذ القرن الخامس الهجري (11م) دخلت اللغة الفارسية في الكتابة الصوفية، وأخذ نطاقها يتسع شيئا فشيئا مثل كتاب «كشف المحجوب» لعلي عثمان الجلابي الهجويري (ت 465هـ). وبعد ذلك تبوأ التصوف مكانة عظيمة في الشعر الفارسي عند جلال الدين الرومي (ت 672هـ/ 1273م) ثم دخلت لغات أخرى في التأليف الصوفي كالتركية والأوردية. (ابن الطيب، 2007: 47)

هـ - مرحلة التصوف الفلسفي:

دخل التصوف في الطور الفلسفي بداية من القرن السادس الهجري حيث تحول التصوف إلى فن غامض ذي لغة اصطلاحية خاصة يحتاج في فهم مسائله إلى جهد غير عادي، ولا يمكن اعتباره فلسفة لأنه قائم على الذوق القلبي كما لا يمكن اعتباره تصوفا خالصا لأنه يختلف عن التصوف الخالص في أنه معبر عنه بلغة فلسفية، متجها نحو وضع مذاهب في الوجود أساسا. (التفتازاني، 1979: 187)

وقد بلغ هذا الطور ذروته في تصوف أصحاب« وحدة الوجود» الذين استفادوا من تجارب أسلافهم المتصوفة القدماء واصطلاحاتهمK وطوروا وحدة الوجود من الحالة الذوقية الشهودية إلى نظرية في الوجود، كان من أبرز أعلامها: يحي بن حبش السهر وردي الفارسي (ت 587هـ/ 1191م) وابن عربي الأندلسي (ت 638هـ/ 1240م). (التفتازاني، 1979: 200 – 205)

يعتبر ابن عربي مؤصل أصول وحدة الوجود ومفصل فصولها. وقوامها أن الوجود هو الله وأن مظاهر التعدد والتكثر في الموجودات لا تعني تعددا في الوجود وإنما هي مظاهر تجلى فيها الوجود الواحد. وبذلك شهدت فكرة التوحيد في الفكر الديني الإسلامي تحولا كبيرا حيث انتقلت من الشهادة بأن لا اله إلا الله إلى الشهادة بأن لا وجود في الحقيقة إلا الله. (ابن الطيب، 2007: 48)

و- مرحلة ظهور المؤسسة الصوفية.

يمكن القول أن أول طريقة صوفية ذات تنظيم محدد لم تظهر إلا في القرن السادس الهجري (12 م) ممثلة في القادرية، حيث أراد المتصوفة الحفاظ على آثارهم وضمان استمرارية تأثير طرقهم. وتميز هذا النظام بثلاثة عناصر بنيوية هي:

- ✓ الشيخ المؤسس باعتباره مرجعا للأتباع وقدوة في الطريق ورئيسا للجماعة.
- ✓ الطريقة الروحية والسلوكية التي سنّها الشيخ.
- ✓ نوع الروابط بين أفراد الجماعة وهي علائق تتوثق حينا وتضعف حينا آخر. (ابن الطيب، 2007: 96)

ومن العوامل التي ساعدت على ظهور هذه الجماعات المنضوية حول الشيخ وطريقته ما عرفته الدولة العباسية من حروب وغزوات ونزاعات دينية ومذهبية، فتولد لدى الأفراد شعور بالقلق جعلهم يفضلون الانتماء إلى جماعة يجدون في كنفها الطمأنينة والانسجام الروحي والمذهبي وروح التضامن.

أمام تفكك الدولة العباسية وتعرضها للاجتياح المغولي ثم الصليبي تنامت سلطة شيوخ التصوف ونافست سلطة الأمراء وكذا العلماء من فقهاء ومتكلمين. وفي هذا السياق تحولت الطريقة الصوفية إلى وسيلة للتكافل والتضامن واستطاعت برباطاتها وزواياها أن تجمع الناس حولها في وقت تراجع فيه دور الفقهاء والمتكلمين.

يكاد ينعقد الإجماع بين الباحثين المهتمين بشأن التصوف أن أقدم طريقة صوفية هي القادرية نسبة إلى مؤسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني (ت 561هـ/ 1166م) الذي استقطب من خلال دروسه ومواعظه جمهورا واسعا من الأتباع والمريدين، وهو صاحب كتاب« الغنية لطالب طريق الحق» وفيه عرض لقواعد السلوك الصوفي للمريدين الجدد. ولقد ذاع صيت الجيلاني باعتباره وليا صالحا وقطبا صوفيا صاحب كرامات. ثم تتابع ظهور الطرق الصوفية في مختلف أنحاء العالم الإسلامي.

ثالثا - التصوف بين المظهرين الزهدي والعرفاني.

يعتبر الزهد خطوة ضرورية نحو التصوف رغم أن كليهما يختلف عن الآخر من حيث المفهوم. فإذا كان الزهد يعني ترك متاع الحياة الدنيا والانصراف إلى الآخرة عن طريق مجاهدة النفس وكبح جماحها فإن التصوف يعني حقيقة العلاقة بين العبد وربه، ويدخل الزهد في تلك العلاقة كأسلوب من أساليب التقرب إلى الله. فالزهد يعد شرطا في التصوف وليس التصوف شرطا في الزهد.

ولذلك يعتبر الزهد الجانب العملي في التصوف، غير أن بعض الزهاد ظهر منهم تشدد ومغالاة في السلوك الزهدي أفضى بهم إلى تضييق دائرة الحلال عندهم فلم تنطبق إلا على القليل من الأشياء، فقد قال ابو حفص الحداد (ت 260هـ) : « الزهد لا يكون إلا في الحلال ولا حلال في الدنيا فلا زهد. » (القشيري، 1989: 221)

لقد كانت هذه المغالاة الزهدية ردّ فعل مضاد للاتجاه المادي المغالي في التمتع بملذات الحياة الدنيا خصوصا من قبل بعض حكام بني أمية وبني العباس، حتى ظهر رجال يفرون من الدنيا لاجئين إلى الكهوف والمغارات والمقابر أمثال: إبراهيم بن أدهم البلخي (ت 161هـ)، واقتنع هؤلاء بأن الدنيا تحول بين المرء وربه وأنه لا بدّ من اعتزالها بالفرار إلى الله.

وبظهور التصوف والمتصوفة أصبح الزهد في عرف هؤلاء مظهرا خارجيا لحياة روحية باطنة، فالزهد الحقيقي مكانه القلب لا الجوارح، فهو ترك كل ما يشغل القلب عن الله. (نيكولسون، 1956: 54)

ومن أقوال المتصوفة في تأكيد فكرة أن الزهد مقدمة ضرورية للتصوف قول أبا يزيد البسطامي (ت 261هـ) : « لما سئل بأي شيء وجدت هذه المعرفة ؟ قال: ببطن جائع وبدن عار.» (السلمي، 1998: 26) وقال الجنيد البغدادي: « ما أخذنا التصوف عن القيل والقال ولكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات لأن التصوف هو صفاء المعاملة مع الله وأصله التعزّف عن الدنيا.» (السلمي، 1989: 49)

وينعكس البعد العرفاني لدى المتصوفة على الجانب التعبّدي من حيث أن التعبّد الحقيقي لا يقف عند أداء الفرائض من صلاة وزكاة...الخ وإنما في الاستزادة من النوافل والمستحبات من أجل تحقيق دوام الاشتغال بذكر الله وتجنب الغفلة عنه عزوجل ومرجعهم في ذلك الحديث القدسي المشهور : «**مَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ .**» (ينظر التعليق رقم 04) و المقصد من هذه المجاهدة خوض تجربة روحية تفضي إلى الفناء في الله.

ويعد الذكر الركن الأول في طريق التصوف فهو أفضل العبادات لأن أقصى ما يبتغى منها هو ذكر الله، بل إن أصل الإسلام قول كلمة لا اله إلا الله وهذه عين الذكر.

لقد مارس الزهاد الذكر كل على طريقته من دون تقيد بنظام خاص في البداية لأن الدعوة إلى الذكر في القرءان لم تحدّد طريقة معينة. ولكن بمرور الزمن تظافرت عدة عوامل جعلت المتصوفة يعقدون مجالس للذكر الجماعي.

إن تصور المتصوفة للعبادة يتجاوز المفهوم التقليدي لدى الفقهاء والمحدثين فهم يرون أن حقيقة الصلاة مثلا ليس في ركوعها وسجودها وقيامها وقعودها وأقوالها وإنما في خشوعها واستحضار القلب فيها.

إن الغرض من المداومة على العبادة والذكر لدى المتصوفة الوصول إلى مرتبة تجتنب فيها المعاصي وتؤتى الطاعات، ولذلك عدّوا خلاصة الطريق الطاعة والذكر. أما الطاعة فتزول بالمعصية، وأما الذكر فيختل بالغفلة، ولذلك كان الهدف من العبادة التفات القلب إلى الله وعدم الانشغال بسواه وبذلك يحصّل السالك منزلة القرب منه والفناء فيه. (ابن الطيب، 2007: 29.)

ولعل أبرز مظهر يتجلى فيه البعد العرفاني يتمثل في السلوك والأخلاق، ومن الأمثال السارية في الأوساط الصوفية:« من سبقك في الخلق فقد سبقك في طريق

التصوف » وكذلك قولهم: « الاستقامة أفضل من الكرامة »، ولذلك فإن حسن الخلق والاستقامة في السلوك هي مقياس التفاضل في طريق القوم، ومثلهم الأعلى في ذلك الرسول محمد صلى الله عليه وسلم حيث يقول الجنيد: « الطرق كلها مسدودة على الخلق الا من اقتفى اثر الرسول، وتبع ولزم طريقته، فان طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه.» (السلمي، 1998: 50) فالأخلاق هي جوهر التصوف قولا وعملا .

تعدّ النفس عند المتصوفة هي منبت الشرور والأخلاق الذميمة مثل الكبر والحسد والبغض والحقد والطمع والبخل...الخ، فلذلك وجب ترويضها بالتوبة والإنابة والمجاهدة والصبر والرضا والقناعة...الخ، ولذلك وجدنا هذا المظهر الأخلاقي قد أشبع بحثا وتأصيلا وتقعيدا في المؤلفات الصوفية مثل كتاب الرعاية لحقوق الله للمحاسبي وقوت القلوب لأبي طالب المكي والإحياء للغزالي والفتوحات المكية لابن عربي. ومن هنا أسس المتصوفة لفقه الباطن مثلما أسس الفقهاء لفقه الظاهر.

لقد تجلى هذا المظهر الأخلاقي في الممارسة العملية للمتصوفة حيث أوجبوا الاقتداء بشيخ سالك يتخذه المريد هاديا ومرشدا، ويكون هذا الشيخ محنكا ذا تجربة عميق المعرفة بصيرا بعيوب النفس مطلعا على خفايا آفاتها...الخ. ولا يزال الصوفي السالك المتأدب بأدب الشيخ يرقى من مقام إلى مقام آخر بدءا بالتوبة وانتهاءا بالمشاهدة، وقوام كل ذلك هو التزام أدب كل مقام وحال، فالتصوف كله أدب.

ومن أبرز الصفات الأخلاقية عند المتصوفة التسامح، ومن تجلياته عدم التمييز بين الناس في المعاملة على أساس من الدين أو العنصر أو اللون. ولعل ذلك ما يفسّر قدرة أهل التصوف على الاستقطاب والانتشار الواسع لأفكارهم وطرقهم.

خاتمة.

يمكن أن نخلص من هذه الدراسة إلى النتائج التالية:

- ✓ يستمد التصوف الإسلامي أصوله وتعاليمه من القرآن الكريم والسنة النبوية، وبما أنه ثورة روحية وفكرية فقد تفاعل وتأثر بالأفكار والفلسفات الأجنبية مما ساهم إلى حدّ ما في ظهور التصوف الفلسفي.
- ✓ يعتبر التصوف الإسلامي ثورة روحية على التيار المادي المغالي في التمتع بملذات الحياة من خلال كبح جماح النفس وترويضها ومجاهدتها لترتقي في مقامات المعراج إلى الله.
- ✓ كان التصوف ثورة علمية وفكرية على منهج الفقهاء والمتكلمين في التعامل مع النصوص وطريقة استخلاص الأحكام، فأفضى ذلك إلى ظهور علم جديد عرف بفقه الباطن أو علم السلوك يهتم بأعمال القلوب.
- ✓ تعرض المتصوفة نتيجة لثورتهم الروحية والفكرية للكثير من المحن ومظاهر التعذيب، مما جعلهم يسعون للتوفيق بين الفقه والتصوف أو بين علمي الظاهر والباطن.
- ✓ ألحق التصوف وأهله بدائرة أهل السنة بفضل جهود كبار المتصوفة في التأصيل الشرعي لمذهبهم وفي مقدمتهم الإمام أبي حامد الغزالي.

رغم تنوع العوامل والمؤثرات التي أنتجت حركة التصوف الإسلامي إلا أن جوهر تلك الحركة ظل يتمحور حول علاقة العبد بربه من خلال الترقي في المقامات والتقلب بين الأحوال للوصول إلى أعلى مراتب القرب من الله بتحصيل العلوم والحقائق الكفيلة بتحقيق اليقين. وهو ما تجسّد تاريخيا أول الأمر في الزهد ليصل إلى مرحلة العرفان.

التعليقات والحواشي:

1 - رواه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داوود وابن ماجة واحمد.

2 - حول الاشتقاق اللغوي والمفهوم الاصطلاحي للكلمة ينظر: أبو العلا عفيفي، المرجع السابق، ص ص 27 – 53.

3 - للمزيد من التفاصيل حول شطحات الصوفية ينظر: عبد الرحمان بدوي، شطحات الصوفية، ج 1 (أبو يزيد البسطامي)، وكالة المطبوعات، الكويت، د ت.

4 - رواه البخاري وأحمد

المراجع باللغة العربية.

1 - الأصفهاني، أبو نعيم، 1996، *حلية الأولياء وطبقة الأصفياء*، ج 10، بيروت، دار الفكر.

2- بدوي، عبد الرحمان، د –ت، *شطحات الصوفية، ج 1، (أبو يزيد البسطامي)*، الكويت، وكالة المطبوعات.

3 - التفتازاني، أبو الوفا الغنيمي، 1979، *مدخل إلى التصوف الإسلامي*، القاهرة، دار الثقافة للنشر.

4- خوالدية، أسماء، 2014، *صرعى التصوف*، ط1، الرباط، دار الأمان.

5- السلمي، أبو عبد الرحمان، 1998، *طبقات الصوفية*، تحقيق أحمد الشرباصي، ط2، القاهرة، دار الشعب.

6- ابن الطيب، محمد، 2007، *إسلام المتصوفة*، ط1، بيروت، رابطة العقلانيين العرب، دار الطليعة.

7 - عرفان عبد الحميد فتاح، 1993، نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها، ط1، بيروت، دار الجيل.

8 - عفيفي، أبو العلا، د – ت، *التصوف الثورة الروحية في الإسلام*، بيروت، دار الشعب.

9- القشيري، أبو القاسم، 1989، *الرسالة*، تحقيق عبد الحليم محمود ومحمد بن الشريف، القاهرة، مطابع مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر.

10 - نيكولسون (رينولد الن)، 1956، *في التصوف الإسلامي وتاريخه*، تعريب: أبي العلاء عفيفي، القاهرة.

المراجع باللغة الفرنسية:

11 - Massignon.L, 1954 : *Essai sur les origines du lexique technique de la mystique musulmane* , paris, 1954.